المبحث الخامس

وصفُ المطر والبرق والسَّحاب والنسائم والنبات

يسَّاقطُ المطر فتزدهي الأرض وتبتهج ، وتكتسي من هذه البهجة ثياباً من الزَّهر المختلف الألوان الذي يُحيي النَّظر ، وتجودُ بالنباتِ والماء الذي يحيي البشر ، وقد جمع القرآن الكريم بين صورة البعثِ والحياة ، وصورة المطر والنبات ، في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥).

فالمطرُ سبب الحياة ، ومن أجله طُبعت حياة البدويّ بالارتحال ، في الصَّحاري النادرة الغيث ((لأنَّ أمطار الجزيرة غير منتظمةٍ ولا يعوِّض عنها أنهارٌ تجري وعيون تسحُّ دون انقطاع ، بل إن كل موارد الصحراء من آبارٍ وغدران ، وإحساء تغذيها الأمطار ولا تلبث بعدها أن تجفَّ رويداً رويداً في حرارةِ الشمس القويَّة ، وهذا الجفاف السريع هو الذي فرض الانتقال ، على البدويّ))[1] .

وقد كانت حياةُ البدو رحلةً دائمةً يتتبَّعون فيها مساقطَ المياهِ التي فيها حياتهم حتّى ((يخيَّل إلى الإنسان أن عيونهم كانت دائماً مشدودةً إلى السماء ، مسمَّرةً إلى أعلى ، تتشوَّفُ إلى منشأ السحاب ، وترقب حركاتِ الرياح ، وقد وقفَ الشعراءُ أمام المطر ومناظره التي خلبت أفئدتَهم واستهوت نفوسَهم ...))[2].

إلاّ أن بيئتهم لم تكن قحطاً دائماً ، فالنصوص الجاهليَّة ((توضِّحُ بجلاءٍ أنَّ هذه البيئة لم تكن جرداء قاحلة على الدوام ، بل كان يصيبها الجفاف والقحط

---

(١) أثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، دكتور سعدي ضناوي ، ص٤٢ .

(٢) مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر الجاهلي ، دكتور حسين عطوان ، ص٤٩ .

لأوقاتٍ مختلفة ، ثم تنزل عليها الأمطار فتمرع وتخصب ، وتتبدَّى في مناظر عجيبةٍ تخلبُ الألباب ، وتجري فيها السيول العارمة ، فتلحق بالإنسان والحيوان ، والأشجار غير قليل من الأضرار ...))[1].

ولذا . . . فإنه من المطر الدَّافق المنهمر المنسكب ، أو الهطِلِ الهتَّان ، صاغت عيونُ الشعراء صوراً شتّى اختلطت بانفعالاتهم ونفسيَّاتهم ، جمع بين معظمها معنى الحياة والخصب والنماء ، وقد يتداخلُ وصفُ المطرِ في مشاهدَ شتَّى ، ويتلاشى فيها ، فهو يسَّاقط دموعاً في صور ، وقد يكون جنى ريق عذبٍ في صور ، كما يأتي محمَّلاً بمعاني الحنانِ ، والإسعاد ، والأمومةِ ، والرضاع ، في كثيرٍ من الصُّور ، إلى غير ذلك من دلالاتٍ كثيرةٍ للمطر ، وقد اختلف الشعراءُ في تناول صورةِ المطر ، فكانت دلالةُ مطرِ امرئ القيس ، غيرَ دلالةِ مطرِ أوس بن حجر ، غير دلالةِ مطر ابن خفاجة ، غير دلالاتِهِ في قصائد مختلفةٍ عند شاعرٍ واحد ، فقد يصفُهُ الشاعر مدمِّراً عاتياً :

((يكبُّ على الأذقانِ دوحَ الكنهبلِ))[2].

وقد يصفُه حانياً هطِلاً[3] :

ديمةٌ[4] هطلاءُ[5] فيها وطفٌ[6] طبَّق الأرضَ[7] تحرَّى[8] وتدرْ[9]

---

(١) بيئات الشعر الجاهلي ، دكتور حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، ص١١٧ .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص٦٦ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص١٠٢ .

(٤) الديمة : المطر الذي ليس فيه رعدٌ ولا برق ، وهو مطر دائمٌ في سكون ، انظر : اللِّسان ، مادة (ديم) .

(٥) هطلاء : مطر دائم مع سكون وضعف ، تابع القطرِ ، انظر : اللِّسان ، مادة (هطل).

(٦) وطفٌ : استرخاءٌ في جوانبه لكثرةِ الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (وطف).

(٧) طبَّق الأرض : غطّاها ، انظر : اللِّسان ، مادة (طبق) .

(٨) تحرّي : ذهب إلى النواحي أيضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (حرا) .

(٩) تدر : تسيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (درر) .

وقد قال ذو الرُّمة ، أن امرأ القيس ، أحسن من وصف المطر ، في الأبيات التي بدأها بقوله ، (ديمة هطلاء) ، انظر : طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، ٩٤/١.

ولا تعني البيئةُ المليئة بالغدران والأنهار ، والكثيرة الأمطارِ في الأندلس ، أن يفقدَ المطرُ قيمتهُ الكبيرةُ في حياة شعرائها ، ونتاجهم ، فقد ظلَّ مشهدُ المطر يشدُّ إليه النفوس ، ومنظرُ البرق يحيى في القلوب الذكرياتِ إحياءَ الموات ، ويهيجُ الحنين للأرض القديمة ، أو البعيدة ، أو الزمن الآفل ، أو الحبِّ الكبير فقد تلاشى في التناول الشعري الأندلسي ، معنى المعايشة الواقعيَّة ، لأنَّ المعايشة الروحيَّة أقوى ، وأوثق وأوصلُ رحماً ، ولأنَّ حياة الصحراءِ الفطريَّة ، والبادية البسيطة ، ظلَّت تسكن الشعراء ، وإن سكنوا القصور ، وحوتهم البساتين وأحاطتهم الزهور ، هناك شيءٌ ما يشدُّ الشعر إلى منبعه ، ويشدُّ الشاعر إلى قديمه ، هو ما نستطيع أن نسميه الحنين الحميميَّ الدافئ البريء ، للبداوةِ وزمنها .

ولذا وجدنا أكثر الصور الشعريّة العربيَّة ، تتناسل ، وتتقاربُ ، ويأخذ بعضها بأعناق بعض ، فقد كان الشّعر ينهلُ من بعضِهِ نهل الشَّارب العطِش للماء ، وينتسبُ لمصدره انتساب الرضاع ، ولذا كثرت الصور البدويَّة للمطر في الشعر الأندلسيّ ، وعمَّت زخَّاتها الرعويَّةُ هذه الصُّور ، والتحم المرعى بالسَّماء ، فوجد الشعراء الأندلسيُّون في السَّحاب صورة الضرع ، والعشار ، والقطعان ، وأصبح سَحُّ المطر فيقاتِ حلب ، وصوتُ الرَّعد هدرَ الفنيقِ المرزم ، وآكامُ السَّحاب قطعانَ الإبل .

فعلى غرار ما ذكر امرؤ القيس ، أنَّ المطر ((يسحُّ الماء عن كلِّ فيقةٍ))[1] في ((تصويرٍ حيٍّ جعل للسحاب ضرعاً ، وجعله يدرُّ اللبن وليس المطر ...))[2] وعلى غرار ما ذكر أوس بن حجر من أنَّه[3] :

---

(١) شرح المعلقات العشر ، الزوزني ، ص٥٦ .
وهي رواية أُخرى ذكرها الزوزني لقول امرئ القيس : ((فأضحى يسحُّ الماء حول كتيفةٍ)) .

(٢) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ، دكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط . الأولى ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م ، ص١٦٢ .

(٣) ديوان أوس بن حجر ، ص١٧ .

كأنَّ فيه عشاراً[1] جُلَّةً[2] شرفاً[3] شعثاً[4] لهاميمَ[5] قد همَّت بإرشاحِ[6]
هُدْلاً[7] مشافرُها[8] بُحّاً[9] حناجرها تُزجي[10] مرابيعَها[11] في صحصحٍ[12] ضاحي[13]

نظر ابن زُمْرُك إلى السُّحب ، فرأى فيها صورةَ الضرع ، وفي المطر اللبان ، فقال[14] :

دمنٌ[15] غذتها المثقلاتُ لبانُها فأتَتْ بناتُ الدَّوحِ[16] ذاتَ ترعرعِ[17]
شَقَّت بها هوجُ الرياح[18] جيوبَها وبكت بها وَطْفُ السَّحابِ[19] الهُمَّعِ[20]

---

(١) العشار من الإبل : الحديثة العهدِ بالنتاج وقد وضعت أولادها وأحسن ما تكون الإبل وأنفسها عند أهلها إذا كانت عشاراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عشر).
(٢) جلَّة : عظيمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلل).
(٣) شرفاً : جمع شارف ، وهي الناقة الهرمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرف).
(٤) شعثاً : متفرقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعث).
(٥) لهاميم : غزيرة اللبن ، انظر : اللِّسان ، مادة (لهم).
(٦) إرشاح : أرشحت الناقة إذا قوي ولدها وسارَ معها ، انظر : اللِّسان ، مادة (رشح).
(٧) هدلاً : متدلية مسترخية ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدل).
(٨) مشافرها : المشفر للبعير ، كالشفةِ للإنسان ، انظر : اللِّسان ، مادة (شفر).
(٩) بحاً : البحَّة غلظ في الصوتِ وخشونة ، انظر : اللِّسان ، مادة (بحح).
(١٠) تزجي : تدفع برفق ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجا).
(١١) مرابيعها : ما ولد من الإبل في الربيع ، وقيل ما ولد في أوّل النتاج ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربع).
(١٢) صحصح : الأرض المستوية الواسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (صحح).
(١٣) ضاحي : الضَّاحي البارز الظاهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضحا).
(١٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٢٦٨ .
(١٥) الدمن : آثار الديار ، وما سوَّدَ النَّاس من آثارِ البعر وغيرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (دمن) .
(١٦) الدوح : الشجر العظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (دوح).
(١٧) ترعرع : تحرَّك ونَمَا وكبر ، انظر : اللِّسان ، مادة (رعع).
(١٨) هوج الرياح : الرياح الشديدة الهبوب ، انظر : اللِّسان ، مادة (هوج).
(١٩) وطف السحاب : المسترخي من السحاب ، انظر : اللِّسان ، مادة (وطف).
(٢٠) الهمع : السائلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (همع).

كما نظر ابن شهيد إلى مشهد المطر ، والربيع النابت في الأندلس ، فارتدَّت الصُّورة عنده إلى بداوتها الأولى ، فذكر (عاصم) من أرضِ هذيلٍ بالحجار ، ورأى الرياح تمري ضرعَ الغمام فتدرُّ المطر ، إدرار البدوي ناقته للحلب ، قال[1]:

أمَّـــا الريـــاح بجـــوِّ عاصِـــمْ[2] فحلـــبن أخـــلافَ[3] الغمـــائمِ
سَـــهَر الحَيَـــا[4] برياضِـــها فأسَالـــهـــا والنَّـــوْرُ[5] نـــائم

وهي صورةٌ بدويَّة قديمةٌ تذكّر بقول امرئ القيس[6] :

راح تمريـــه[7] الصَّـــبا ثم انتحـــى فيـــه شـــؤبوبُ[8] جنـــوبٍ منفجِـــرْ

ورأى الشعراءُ الأندلسيُّون النوقَ في السُّحب وسمعوا صوت البعيرِ الهادر في الرَّعد ، فابن حمديس ، يأتي بهذه الصُّورة البدويَّة في الشعر ، ولكن يخالطها عنده من البيئةِ الأندلسيَّة مشهدُ تساقط الثلج ، فيقول[9] :

ولا ســـاكناً في ليلـــةٍ مُدْلَهِمَّـــةٍ[10] سرى ركبُها فيها اصـــطلاءَ[11] ظـــلامِ

---

(١) ديوان ابن شهيد ، ص١٢٣ .
(٢) عاصم : بالصَّاد المهملة اسم موضع في بلاد هذيل ، قال أبو جُندب الهذلي : (وأوردتهم ماء الأثيلِ فعاصما) انظر : معجم البلدان ، ٤/٦٧ .
(٣) أخلاف : جمع خِلف بالكسر ، وهو الضرع لكلّ ذاتِ خفّ ، وظلف ، انظر : اللّسان ، مادة (خلف) .
(٤) الحيا : المطر ، والغيث والخصب ، انظر : اللّسان ، مادة (حيا) .
(٥) النَور : الزهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نور) .
(٦) ديوان امرئ القيس ، ص١٠٣ .
(٧) تمريه : المري مسحُ ضرع الناقة لتدرّ ، انظر : اللّسان ، مادة (مرا) .
(٨) الشؤبوب : الدفعة من المطر ، انظر : اللِّسان ، ماد (شأب) .
(٩) ديوان ابن حمديس ، ص٤٣٤ .
(١٠) مدلهمّة : مظلمة ، انظر : اللّسان ، مادة (دلهم) .
(١١) الاصطلاء : طلب الدفء ، انظر : اللّسان ، مادة (صلا) .

إذا ما رَغَا[١] في الجوّ فحلُ[٢] سحابِهَا ... حكى الثلجُ من شِدْقَيه[٣] جعدَ لُغَامِ[٤]

فابن حمديس ، خلال وصفه الثلج من البيئةِ الأندلسيَّة لم يغادر الصورة البدويَّة ، فشبَّه الثلج بالزَّبد على أفواه الإبل .

وقد يتداخل في وصف السحب التشبيه بالإبل ، مع التشبيه بالفرس الأبلق ، وهو الذي فيه سوادٌ وبياض[٥]، وقد أراد الشعراء بذلك صورة البرق الذي يتكشَّفُ تكشُّفَ البياضِ في جسد الفرس الأدهم ، ومن ذلك قول المهنَّد[٦]:

تكشّف كالأبلقِ الظَّافِرِ ... وهمهمَ[٧] كالبازلِ[٨] الهادرِ[٩]

كأنَّ فؤادي في خفقهِ ... وعينيَ في عينهِ الماطرِ

والتشبيه بالفرس الأبلق قديمٌ في الشعر ، ومنه قول أوس بن حجر في وصف المطر[١٠] :

كأنَّ ريّقهُ[١١] لما علاَ شَطِبًا[١٢] ... أقرابَ[١٣] أبلقَ[١٤] ينفي[١٥] الخيلَ رمَّاحِ[١٦]

---

(١) رغا : الرُّغاء : صوتُ البعير وضجيجه ، انظر : اللِّسان ، مادة (رغا).

(٢) الفحل : الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (فحل) .

(٣) الشدقان : جانبا الفم ، انظر : اللِّسان ، ماد (شدق) .

(٤) جعد اللغام : زبَد أفواهِ الإبل ، المتراكب المجتمع ، انظر : اللِّسان ، مادة (جعد) ، ومادة (لغم) .

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (بلق) ، والحلية ، ص١١١ .

(٦) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٢٤ .

(٧) همهم : الرّعد إذا سَمِعَ له دويًا ، انظر : اللِّسان ، مادة (همم) .

(٨) البازل : البعير إذا فطر نابه أي انشق ، انظر : اللِّسان ، مادة (بزل) .

(٩) الهادر : البعير إذا صوّت ، وهدر البعير إذا ردّد صوته في حنجرتِهِ ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدر) .

(١٠) ديوان أوس بن حجر ، ص١٥ .

(١١) ريّقه : انصبابه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريق) .

(١٢) شطبا : جبل معروف ، انظر : اللِّسان ، مادة (شطب) .

(١٣) أقراب : خواصر ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرب) .

(١٤) أبلق : فيه سواد وبياض ، وهو من ألوان الخيول ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلق) ، والحلية ، ص١١١ .

(١٥) ينفي : يطرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفي) .

(١٦) رمّاح : يضرب برجله ، انظر : اللِّسان ، مادة (رمح) .

ولعلَّ ارتباطَ المطر والسّحب بالمرعى والرعي والإبل ، ممّا جاء في الصورة البدويَّة وتوالت تشكيلاتها في الشعر العربي ، كان لأنَّ المطر مصدرٌ مباشرٌ للخصب والربيع ، والنبات ، الذي تسرحُ فيه قطعانُ المواشي والإبل ، فنقل الشعراء صورة المرعى للسَّماء ، بكلّ ما تحمله من دلالاتِ الخصوبةِ ، والعطاء ، والإدرار ، وهي الدلالات التي جعلت هذه الصّورة البدويَّة ترتبط أيضاً بالمرأةِ التي تحمل وتضع ، وهو تصويرٌ ((شائعٌ في الشّعر جدّاً ، وله صورٌ ممتدّة في التصوُّر ، وأنَّهم جعلوا السحاب تضعُ أي تلدُ بدل أن تمطر ...))[1].

فابن حمديس في وصفه للمطر ، استعار للسحابةِ صورة المرأة الحاملِ بدلاً من الناقة ، ولصوتِ هدير الرَّعد ، صوتَ أنينِ الوضع بدلاً من إرزام البعير ، قال[2] :

ومُديمــــةٍ لمــــعَ الـــبروقَ كأنَّهـــا	هزَّتْ مــن البـيضِ الصّــفاحِ مُتُونـا
وسَرَتْ بــها الريحُ الشَّمالُ فكــم يــدٍ	كانت لـــهـــا عنــد الريــاضِ يمينَــا
صَرَخَتْ بصوتِ الرَّعدِ صــرخةَ حامــلٍ	مــلأتْ بـــها الليــلَ البـهيمَ أنينَــا
حتّــى إذا ضـــاقَتْ بمضــمرِ حَمْلِهـــا	ألقــتْ بحجــرِ الأرضِ[3] منــه جنينــا

فقد رأى الشعراء في السحابة امرأة ، كما جعلوا المرأة سحابة ((فمن رموز المرأةِ السحابةَ وخصوبة السحابةِ لا تخفى ، قال الأعشى : مرَّ السحابةِ لا ريثٌ ولا عجلُ))[4] ، وابن حمديس حين أعارَ السحابة صفة المرأة التي تضع ممّا هو مشابهٌ لصورة النوق التي ((تزجي مرابيعها))[5] تداعت المعاني عنده فأعار للأرض أيضاً صورة المرأة التي تحضن جنين السحابة وترأُمُهْ ، ممّا دلَّ به على خصوبة الأرض ، التي كثر في الشعر وصفها .

---

(١) الشعر الجاهليّ ، دراسة في منازع الشعراء ، دكتور محمد أبو موسى ، ص١٦٢.

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٤٩٠.

(٣) حجر الأرض : حضن الأرض ، انظر : اللّسان ، مادة (حجر).

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ١٣٨/٣ ، وانظر : القصيدة في ديوان الأعشى ، ص٣٧٩.

(٥) ديوان أوس بن حجر ، ص١٧ .

ومن الأمثلة على ذلك ـ أيضاً ـ في الشعر الأندلسي ، قصيدةٌ لحازم القرطاجنّي وصف فيها المطر الذي يتساقط على الطلل ، فيجدِّده ويجلوه ، وقد كان في الصورة البدويّة الجاهلية المتوارثة مطران :

مطرٌ يعفّي الأثر ويطمس معالمه ويتعاون مع الريّاح على تعفيته ، ومطرٌ يجلو هذا الأثر فيغسله ويظهره ، وقد وصف حازم في قصيدته ، المطر الذي يجدّد الطلل ، فقال[1] :

ربـعٌ تجـدُّ لعـيني كـلُّ معصـرةٍ[2] مـن رسمـه مـا تعفّيـه الأسَـاطيرُ
من كـلّ غـرّاءَ[3] مبـيضٍّ جوانبُهـا بـالودقِ[4] مشـرقةٌ منـها الأسـاريرُ
إذا اسـتدارَ سَـنَاها خلتـه ذهبـاً دارت علـى معصـمٍ منـه أسـاويرُ
كأنما قعقعتْ[5] في جـوزِه[6] وجلـت حُلى معاصِـمِهَا البـيضُ المقاصـيرُ[7]
دارُ التي لم تزلْ تـدنو بـهـا سـنةً ذنبُ اللّيالي بـهـا في البعـدِ مغفـورُ

وحازم هنا في وصفه هذا المطر الذي هطلَ على طللٍ قديم ، لـم يذكـر حزناً ، وانسكابَ دموع ، وإنما وصف مطراً مشرقاً ، إشراقَ الذكرى الجميلةِ في قلبه ، فالمطر الذي جَلَى الطلل فأظهر حسنه وجدده ، أعاد إلى الشاعر صورة المحبوبةِ وجمالها ، فتخيّلها في السماء ، والسُّحب ملتفة حول معصمها التفافَ أساور الذهب ، فأضاف حازم إلى الصورة البدويَّة من نمنات التَّرف الأندلسيّ رؤية الذهب في السماء ، فالمطر الذي جدّد الطلل ، جدّد في قلب

---

(١) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص٦٠ .
(٢) المعصرة : السحابة ، انظر : اللّسان ، مادة (عصر) .
(٣) غرّاء : بيضاء ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .
(٤) الودق : المطر كلّه شديده وهيّنه ، انظر : اللّسان ، مادة (ودق) .
(٥) قعقعت : اضطربت وتحرّكت وتزعزعت ، انظر : اللّسان ، مادة (قعع) .
(٦) جوزه : مسالكه ، انظر : اللّسان ، مادة (جوز) .
(٧) المقاصير : النساء المقصورات المحصنات ، نسبة إلى المقصورة ، وهي الدار الواسعة المحصّنة لا يدخلها غير صاحبها ، انظر : اللّسان ، مادة (قصر) .

الشاعر رؤية من يحب بخيال القلب في السُّحب ، وهو بعد هذا الوصف المشوب بالإشراق والإسعاد ، يرتدُّ إلى واقعه ، فيتحدَّرُ بالصورة من السماء التي جمع فيها بين المطر والصاحبة إلى الأرض ، فيرى ((دارَ التي لم تزل تدنو بها سَنةٌ)) فلم تزل صاحبةُ الدار البعيدة دانية قريبة من القلب ؛ لأنَّ رؤيا الخيال تؤنس الوحشة وتريح النفس .

وصورةُ المرأةِ التي تخيلها الشعراء في السماء قديمة في الشعر ، فمن ذلك ما ذكره النَّابغة ، عندما رأى وجه نعم في سنا البرق ، فقال[1] :

أَلمحــةٌ مــن ســنا بــرقٍ رأى بصــريْ ... أم وجــهُ نعــمٍ بَــدا لي أم سَــنَا نــارِ
بل وجهُ نعــمٍ بــدا ، واللَّيــل معتكــرٌ ... فــلاحَ مــن بــين أثــوابٍ وأســتارِ

وفي مثل هذا الوصف يقول عيسى بن الوكيل[2] :

سلِ البرقَ إذ يلتاحُ من جانــبِ البرقَــا ... أقرطَيْ سُليمى أم فؤادي حكــى خَفَقَــا
ولِمْ سَــيَّلَتْ تلــك الغمامــةُ دمعَهــا ... أريعت لوشكِ البينِ أم ذاقــت العشــقَا

فذكر قرطي سليمى ، وأراد بهما سليمى .

وتوالى في الشعر الأندلسيِّ الصورُ البدويَّة في وصف المطر ، فابن شهيد يصف الطبيعة في الأندلس ، فينصرف به القلبُ إلى البداوة ، فيذكر النَّقا ، والأثل ، والجرعاء ، ويرى مرعى ، وأسراب نعاجٍ وجآذر ، ويستعير للمطر من وصف امرئ القيس للَّيل (وناء بكلكل)[3] ، يقول[4] :

وإنَّ هبــوط الــواديين إلى النَّقــا[5] ... بحيث التقى الجمعان واستقبلَ السَّقْطَا[6]

---

(١) ديوان النابغة ، ص١٤٨ .

(٢) صفة جزيرة الأندلس ، للحميري ، ص١٩٤ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص٤٨ .

(٤) ديوان ابن شهيد ، ص٨٩ .

(٥) النّقا : الكثيب ، وهي قطعة من الرمل محدودبة ، انظر : اللّسان ، مادة (نقا) .

(٦) السقط : هيدب السحابة ومطرها ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٤٤٦/١ ، مادة : (سقط) .

لمسرَحُ سِــربٍ مــا تقــرّى[1] نعاجُــهُ بريراً[2] ولا تقــرو جــآذرُهُ خَمْطَــا[3]
ومرتجزٍ[4] ألقى بذي الأثلِ كلكــلاً[5] وحطَّ بجرعاءِ[6] الأبــارِق[7] مــا حطَّــا
سعى في قيــادِ الــريح يســمحُ للصَّــبا فألقتْ على غيرِ التلاعِ[8] بــه مِرْطَــا[9]
وما زال يروي التربَ حتّى كَسَا الــرُّبى درانِكَ[10] والغيطانَ[11] من نَسْجِهِ بُسْطَا
وعَنَّــتْ لــه ريــحٌ تُســاقِطُ قَطْــرَهُ كما نثرتْ حسناءُ من جيدها سِمْطَا[12]

وابن شهيد شبَّه الربيع الذي خلَّفه المطر ، بالمرط والبسط ، وهو تشبيه قديم في الشعر ، فقد قال امرؤ القيس مشبّها النبات بالثياب[13] :

---

(١) تقرّى : تتبَّع ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرا).

(٢) البرير : الأول من ثمر الأراك ، انظر : اللِّسان ، مادة (برر).

(٣) الخمط : ثمر الأراك ، وقيل شجر له شوك ، انظر : اللِّسان ، مادة (خمط).

(٤) مرتجز : ارتجز الرَّعد إذا تدارك صوته كارتجاز الراجز ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٣٢٤/١ ، مادة (رجز).

(٥) الكلكل : الصدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلل).

(٦) الجرعاء : الأرض ذات الحزونةِ تشاكل الرمل ، وقيل هي الرمل الطيبة المنبت ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرع).

(٧) الأبارق : حجارة ورمل تختلط ، والأبارق ، غير مضاف ، علم لموضع بكرمان ، انظر : معجم البلدان ، ٥٩/١.

(٨) التلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (تلع).

(٩) المرط : كساء من خز أو صوف أو كتّان ، تأتزر به المرأة ، وقيل هو الثوب الأخضر ، انظر : اللِّسان ، مادة (مرط).

(١٠) درانكَ : جمع درنوك ، وهو البساط ، والفرش ، والستر ، فيه الصفرة والخضرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (درنك).

(١١) الغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئن من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (غوط).

(١٢) السمط : الخيط ما دام فيه الخرز ، وقيل القلادة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمط).

(١٣) ديوان امرئ القيس ، ص٦٨ .

وألقى بصحراءِ الغبيطِ[1] بعَاعهُ[2] نزولَ اليماني ذي العيابِ[3] المحمَّلِ

((يقول : ألقى هذا الحيا ثقله بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات فصار نزول المطر به كنزولِ التاجر اليماني صاحب العياب المحمَّل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها علَى المشترين))[4].

وهو الوصفُ الذي أراده ابن شهيد بالمرط ، والدرانك ، والبسط ، وجاء في شعر الكثيرين ومنهم أوس بن حجر الذي قال مشبِّهاً النبات بالمُلاء[5] :

كأنما بين أعلاهُ وأسفلُه ريطٌ[6] منشَّرةٌ أو ضوءُ مصباحِ

ويضيف ابن شهيدٍ في الصورة الجمع بين المرأةِ والسحابة ، وذلك حين يشبه المطر بعقدٍ تناثر من حسناء .

ومن الصُّور المستلهمةِ من بيئةِ البداوةِ في وصف السحاب والمطر عند شعراء الأندلس ، تشبيه الأمطار بالدِّلاء التي تفرغُ المياه من الآبار ، وفي ذلك يقول يوسف بن هارون ، يصف سحابةً دنت من الأرض حتّى كأنَّها تتشمَّمها[7] :

ومشمَّةٍ للأرضِ حتّى كأنَّها تقصّى محولاً في البطاحِ المواحِلِ[8]
فجنَّت كما جنَّ الظلام وأفرغت علينا كإفراغ الدِّلاءِ الحوافِلِ[9]

---

(١) الغبيط : اسم وادٍ ، ومنه صحراء الغبيط ، انظر : اللِّسان ، مادة (غبط).
(٢) البعاع : شدّةُ المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بعع).
(٣) العياب : ما يُجعل فيه الثياب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عيب).
(٤) شرح المعلقات العشر ، الزوزني ، ص٧٩ .
(٥) ديوان أوس بن حجر ، ص١٦ .
(٦) الريط : الملاءة ، والملحفة ، والإزار ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريط).
(٧) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٣٦ .
(٨) المحل : الجدب والشدّة ونقيض الخصب ، وهو احتباس المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (محل).
(٩) الحوافل : الملاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ملأ).

فالصُّور البدويَّة الأولى للمطر ، شَدَّت الشعراء الأندلسيين لأنَّهم يدنون بصورة الرعي القديمةِ من عهد البراءة الأوَّل ، فهم يستدعون بذلك زماناً قديماً ، وعهداً مضى ، لم تذهب السنون ولا سكنى الدور والقصور بتوهّجه في القلب ، فظلَّت أصوات الرِّعيان في البادية ، خلف السَّوام ، بين كثبان رامة أو نجد والحجاز ، وصورة الفتاةِ البدويَّة البريئة النقيَّة تؤجّج جمراً ، حُثيَ عليه الرَّماد ، ولكنَّه ظلَّ متوقّداً وكأن الشعراء الأندلسيين ، يرددون الصور البدويَّة متمنين هذا العهد القديم ، تمنّي المجنون أن يعود يرعى البهم مع ليلى[1] :

صغيرين نرعى البَهمَ يا ليتَ أنَّنا ... إلى اليومِ لم نكبر ولم تكبرِ البُهمُ

ولذا لم يحفل الشعراء الأندلسيُّون ـ في معظم شعرهم ـ بواقع المكان الذي هم موجودون به ؛ لأنَّ شعور الحنين لديهم إلى أيٍّ من مكانٍ أو وطنٍ أو صاحبة أو ذكرياتٍ أو زمن ، وغير ذلك ، ظلَّ مشدوداً بالأماكن البدويَّة التي استمدّوا من وهجها ودفئها ، وسريانها في الرُّوح ، ما دلّوا به في الشعر على لواعج الهوى والصبابة والشوق ، والحنين ، والذكريات . . . وما إلى ذلك ، ولذا ظلَّ البرق الذي يرونه في الأندلس يتألَّق من جهة الرسم والربع والحمى ، فقال ابن خفاجة[2] :

أرقت لذكرى منزلٍ شطَّ[3] نازحٍ ... كلفتُ بأنفاسِ الرِّياحِ له شَمَّا
فقلتُ لبرقٍ يصدعُ[4] الليلَ لامحٍ ... ألا حيِّ عنّي ذلك الرَّبع[5] والرَّسما[6]
وأبلغْ قطينَ[7] الدّارِ أنّي أحبُّهم ... على النأي حبًّا لو جزوني به جمًّا[8]

---

(١) ديوان المجنون ، ص٢١٨ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٨١ .
(٣) شطّ : بعد ، انظر : اللّسان ، مادة (شطط) .
(٤) يصدع : يشق ، انظر : اللّسان ، مادة (صدع).
(٥) الرَّبع : مكان إقامة القوم ، انظر : اللّسان ، مادة (ربع).
(٦) الرسم : بقية الأثر ، انظر : اللّسان ، مادة (رسم).
(٧) القطين : المقيمون في الموضع لا يكادون يبرحونه ، انظر : اللّسان ، مادة (قطن).
(٨) جمّاً : كثيراً ، انظر : اللّسان ، مادة (جمم).

وأقـرئ عفـيراءَ السَّـلامَ وقـل لَهَـا ألا هل أرى ذاكَ السُّهى[1] قمراً تـمَّا

فقد كان البرق رمزاً للشوق والحنين، لأنَّهم كانوا ((عند مساقطه يتمُّ لقاؤهم بأحبتهم، ولذا ربطوا بينه وبين الشوق والحنين إلى أحبابهم وكذلك ربطوا بين لمعانِهِ وبين أيّام الصّبا، وما يصاحب ذلك من شوقٍ وحنينٍ إليها ...))[2].

وقد كثرت وشاعت صورة البرق المرتبط بالمكان البدويّ في الشعر الأندلسيّ، واستخدمت كثيراً كعنصرٍ من عناصر الإبانةِ عن الحنين والوجد، ومن ذلك قول ابن زُمْرُك[3]:

يـا بارقـاً بـالجزعِ[4] إنَّ لبانـةً[5] بالقلـبِ لـو قضَّـيتها لم أجـزعِ
أعتـاضُ عنـها بالنَّهـارِ وربَّمـا يأوي الظلامُ بـهـا لقلـبي الموجَـعِ
فـإذا مـررتَ بـه وجُسْـتَ خلالَـهُ فانشـدْ فـؤادي بـين تلـك الأربـعُ
حيًّا معاهـدَهَا القبـولُ[6] وجادَهـا[7] غيثانِ من صـوبِ[8] الغمـامِ وأدمعـي

فذكر ابن زُمْرُك المطر والبرق في سياق الحنين للحبيبةِ، والمكان، والبكاء على الطلل.

وفي مثل هذا الوصف، تأتي صورة المطر والبرق عند ابن فرج الجيَّاني،

---

(١) السُّهى: كويكب صغيرٌ خفي الضوْء، وفي المثل: أريها السها وتريني القمر، انظر: اللّسان، مادة (سها).

(٢) وصف البيت الحرام في الأدب العربي، دكتورة سعاد سيد محجوب، المجمع الثقافي، دبي، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٥٦.

(٣) ديوان ابن زمرك، ص٢٦٧.

(٤) الجزع: منعطف الوادي، رملٌ لا نبات فيه، انظر: اللّسان، مادة (جزع).

(٥) لبانةٌ: حاجة، انظر: اللّسان، مادة (لبن).

(٦) القبولُ: من الريّاح الصَّبا، انظر: اللّسان، مادة (قبل).

(٧) جادها: سخى عليها، انظر: اللّسان، مادة (جود).

(٨) الصوب: نزول المطر، انظر: اللّسان، مادة (صوب).

الذي ذكر الغور من تهامة ومعاهدَ نُعمٍ البدوية وتمنّى أن يهطل عليها المطر[1]:

أرى عارضاً[2] بالغورِ[3] لو أنّه يهمي ... لعمَّ بنعماهُ المعاهدَ[4] من نُعْمِ
تألّقَ[5] واحمومى[6] فقلت : مغاضبٌ ... تبسَّمَ عن وجهٍ بغيرِ الرِّضَا جهمِ

وقد يقوم الشَّاعرُ الأندلسيّ ، بإعلاءِ نبرة الحنينِ في الشّعر ، فيذكر نجداً ، لأنَّها كما أشرنا سابقاً تحمل قيمة حنينيّة كبيرة ، تعجز أن تحملها المدن الأندلسيَّة ، ولذا كثر الاتكّاءُ على نجدٍ في الشّعر ، وتغنّى الشعراء الأندلسيُّون بوصفِ البرق الذي يلوح من جهتها ، وكان ذكرها في الشعر (يزيد وجداً على وجدٍ)[7] ، يقول أبو السِّراج المالقي[8] :

ألا أيها البرقُ الذي ظلَّ يرتقي ... ويجلو دجى الظلماءِ أذكرتني نجدا
ألم تر أن الليلَ يقصرُ طولُه ... بنجدٍ وتزدادُ الرياحُ بها بَرْدَا
ويا أيُّها البرقُ الذي لاح من هُنَا ... لقد هجت لي شوقاً وحمَّلتني وجداً
ويا أيُّها البرقُ الذي طال عهدُه ... عليَّ لقد أضرمتَ في كبديْ وجداً

فلم يوصفُ البرق لأنه التمع في السَّماء ، وإنما وُصِفَ لأنه كانت تحته كوامن كثيرة ، فالشعراءُ ((ما إلى نعتِ الطبيعة يريدون ، لكنَّما يريدون إلى

---

(١) الحدائق والجنان ، لابن فرج الجياني ، ص٤٩ .
(٢) العارض : السحابة في ناحيةٍ من السماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).
(٣) الغور : تهامة ، وما يلي اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (غور).
(٤) المعاهِد : المنازل التي كنت عهدتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عهد).
(٥) تألّق : البرق الكاذب الذي لا مطر فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ألق).
(٦) احمومى : اسودَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (حما).
(٧) من الأبيات المشهورة التي تقول :
ألا يا صَبَا نجدٍ متى هجتَ من نجدِ ... فقد هاج لي مسراك وجداً على وجدِ
انظر : الحيوان ، ٣/٢٠٨ ، وهي الأبيات المنسوبة إلى ابن الدمينة .
(٨) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، إبراهيم بن مراد ، ص٢١٤ .

الإفصاحِ عنِ اللَّواعج التي في القلوب))[1] فالمالقي سما بالشّعر عن الوصفِ المباشِرِ لحرُق الهوى ولواعج الشوق والحنين إلى الرمز الدافئ في صورة برق تألّق فقدح نيران القلب فجاءت نجد ، والوجد ، والرياح التي تزدادُ برداً ، ليضمّن هذا النَّغم الحزين ، حرقة هوى ذكر أنَّها لاحت من هنا ، فتَحْتَ صورةِ البرقِ كوامنُ كثيرةٌ ، تضمُّ عشقاً ، ولوعة ، وجوى .

وفي مثل هذه المعاني التي رمز لها ذكر البرق ، يقول بشرُ بن حبيب[2]:

قل لبرقٍ أضاءَ من نحو نجدِ ... كيف بالله ساكنُ الجزعِ بَعْدي
أتُراهمْ على العهودِ أقامُوا ... أم ترى البينُ قد أخلَّ بعهدي

وقد كثر في الشعر الأندلسيّ ، وصف الذكرى التي يهيجها البرق ، وفي هذا المعنى يقول ابن خفاجة من قصيدةٍ بدويَّة طويلة[3]:

وما هاجني إلاّ تألُّقُ بارقٍ ... لبستُ به بُرْدَ الدجنّةِ[4] مُعلَما
تلوّى هدوًّا يستطيرُ كأنّما ... أروعُ به في سدفةِ الليلِ[5] أرقمَا
إذا خطَّ سطراً بين عينيَّ مُذْهباً ... تداركهُ قطرُ الدموعِ فأعْجَمَا
حملتُ له قلباً جباناً ومدمعاً ... شجاعاً إذا ما أحجمَ[6] الصبرُ صمَّمَا[7]
ويا عجباً لي كيف أجبنُ في الهوى ... وإنّي لمقدامٌ إذا الذِّمرُ[8] أحْجَمَا

لقد جاءت صورة البرق الذي هاج الهوى عند ابن خفاجة ، في سياق وصف الرحلة ، والسُّرى ، والليل ، وفيها تغنّى بشجاعته ، وجسارته وبسالته ، ولكنّه

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ، عبد الله الطيب ، ١٤٤/٣ .
(٢) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، إبراهيم بن مراد ، ص٣٥١ .
(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص١٧٣ .
(٤) الدجنّة : الدجن ، ظلّ الغيم في اليوم المطير ، انظر : اللّسان ، مادة (دجن).
(٥) سدفة الليل : ظلمة الليل ، انظر : اللّسان ، مادة (سدف).
(٦) الإحجام : ضدّ الإقدام وهو النكوص ، انظر : اللّسان ، مادة (حجم).
(٧) صمّما : التصميم : المضيُّ في الأمر ، انظر : اللّسان ، مادة (صمم).
(٨) الذّمر : الشجاع ، انظر : اللّسان ، مادة (ذمر).

فيها يحمل قلباً بدوياً ، يقاتل في الحروب ويجبنُ في الحبّ ، فلمّا رأى البرقَ ، صَبا ورقّ وحنَّ ولان ، وبكى ، فقد قال (أروع به) [1] ، ثم ذكر الدّموع ، والقلبَ الجبان في الحبّ ، وصورة البرق المشبهة الثعبان قديمة في الشّعر ، يقول الجاحظ ((وهكذا صفة الأفعى لأنها أبداً ثابتةٌ مستوية ، فإذا أنكرتْ شيئاً فَنَشْطَتْها كالبرق الخاطف))[2].

فابن خفاجة طابق بين القلب الجبان الذي تهالك ولان وضعف لرؤيةِ البرق ، والمدمع الشجاع الذي انهمر وسال ، وهو باب من أبواب التغنّي في الشعر الذي يرى فيه أصحابُه أن الصَّبوة من أمارات القوّة ، وأنه لا يحنُّ ويصبو إلاّ قلب قويٍّ شجاع .

وقد ارتبطت رؤية البرق بعادة الشيم البدويَّة فقال امرؤ القيس لصاحبه ((أريكَ وميضَهُ))[3]، وكذلك قال الطفيل الغنوي[4]، كما قال عبيد بن الأبرص

---

(١) من باب التجريد وهو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيها ، ومنه قولهم (لي من فلان صديقٌ حميم) .
انظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ص٣٧٤ .

(٢) الحيوان ، الجاحظ ، ٢٦٤/٤ .
وقد ذكر أبو هلالٍ العسكري ، من وصفه للحيَّة قوله مشبّهاً إياها بالبرق :
وخفيفــةِ الحركـــات تقتــرعُ الــرُّبى ــــــ كــالبرقِ يلمــع في الغمــام الــرّائح
ديوان المعاني ، ١٤٥/٢ .

(٣) يقول امرؤ القيس :
أصاح تـرى برقــاً أُريــك وميضــه ــــــ كلمــع اليــدين في الحــبيّ المكلَّــل
ديوان امرئ القيس ، ص٦٣ .

(٤) يقول الطفيل الغنوي :
أصاح تـرى برقــاً اريــك وميضــه ــــــ يضــيء ســناهُ ســوق ألــلِ مــركّم
ديوان الطفيل الغنوي ، ص١٠٣ .

((بتُّ أرقبه))[1]، وأوس بن حجر ((بتُّ الليلَ أرقبه))[2]، وقد تعلّق نظرُ البدويّ إلى السَّماء ينظر فيها إلى السحاب ، أين يقصد ، وأين يمطر ، وهي عادة بدويَّة كثر ذكرها في الشعر القديم فكثيراً ما ينسب الشعراءُ البدو إلى أنفسهم شيم[3] البرق ، ((وسبب ذلك هو أنَّ شيم البرق كان بمثابةِ الربيئةِ لا يكون إلاّ من الأفضل الأكرم الذي يحمل همَّ العشيرة ، وكان من المناقب الأساسيَّة التي تغنّى بها الشعراء ...))[4] ، وقد تعلّقت قلوبُ الشعراء الأندلسيين بهذه الصُّورة البدويَّة ، فقال محمَّد بن سليمان[5] :

خليليَّ شيما عارضاً لاحَ برقُه ... إلى أين يهوي برقُهُ المتبعِّقُ[6]

ركامٌ[7] إذا احمومى[8] وقطَّبَ وجهه ... تبسَّمَ فيه برقُهُ المتألِّقُ

حرامٌ على ذي خُلّةٍ شامَ مثله ... سناً بارقٍ أن لا يُرى يتشوَّقُ

وكذلك قال ابن سهل[9] :

أرقتُ لبرقٍ بالحمى يتألّقُ ... فقلبي أسيرٌ حيثُ دمعي مطلقُ

---

(١) يقول عبيد بن الأبرص :

صاح ترى برقاً بتُّ أرقبه ... ذات العشا في غمائم غُرُرُ

ديوان عبيد بن الأبرص ، ص٧٣ .

(٢) يقول أوس بن حجر :

يا من لبرقٍ بتُّ الليلَ أرقبُه ... في عارضٍ كمضيء الصبح لمَّاح

ديوان أوس بن حجر ، ص١٥ .

(٣) انظر : اللّسان ، مادة (شوم) .

(٤) الشعر الجاهلي ، دراسة في منازع الشعراء ، دكتور محمد أبو موسى ، ص١٣٧ .

(٥) الحدائق والجنان ، لابن فرج الجياني ، ص١١٧ .

(٦) المتبعِّق : المندفع بالماء ، انظر : اللّسان ، مادة (بعق) .

(٧) ركامٌ : مجتمع بعضه فوق بعض ، انظر : اللّسان ، مادة (ركم) .

(٨) احمومى : اسودّ ، انظر : اللّسان ، مادة (حما) .

(٩) ديوان ابن سهل ، ص٢٤٦ .

إذا فُهْتُ بالشكوى ترنَّم صاحبي كما طارحَ الغصنَ الحمامُ المطوَّقُ
فبتنا قريني لوعةٍ نصطَلي بها كأنّا على النّار النّدى والمحلّقُ

فذكر ابن سهل من عادات البداوة شيمَ البرقِ والسهرَ لرؤيته ، وأردف ذلك أيضاً على العادة البدويّة ، وجودَ الصّاحب الذي يؤازره ، فيتباكيان اللّوعة معاً ، وقوله (بات على النّار الندى والمحلق) تضمين لشطر بيت الأعشى المشهور في المدح[1] :

تشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النّارِ النّدى والمحلّقُ

ومن عادة الشيمِ البدويَّة إلى عادةٍ أخرى من العادات البدويَّة الكثيرةِ المتوارثةِ المتشربة في النفوس العربيَّة ، وهي الدُّعاء بالسقيا ، الذي كان من متطلبات بيئةِ البداوة ، ثم أصبح جوداً بدويًّا بالقول مُستلهماً من جود السماء ، فاستسقى به الشعراء لكلّ شيء جميلٍ لزمن ماضٍ ، أو حبيب بعيد ، أو مكان عزيز ، أو طللٍ دارسٍ ضمَّت بقاياه ذكريات الصَّبابة والصِّبا ، ((وقد لا يعدو ما يذكر في بعض الأشعار من حلول الغيث بهذا الموطن وسقيه له وارتواء تربته منه ، سوى تعبيرٍ رمزي عمَّا غدا يغمر النفس من ابتهاجٍ باستدعاء هذا الموطن إلى الذاكرة ، واستعادة الذاكرة له ، وإن جاء ذلك في بعض الأحيان في شكل دعاء))[2] .

وظلَّ للمطر في المفهوم الأندلسيّ ، والبيئةِ الأندلسيَّة الكثيرة الأمطار دلالاتِهِ البدويَّة ؛ لأنَّ الدعاء بالسقيا ، دعاء بالخير والخصب والنماء والحياة ، فاستسقى الشعراء في الأندلس ، لما عشقوا ومن عشقوا ، فقال ابن الحدّاد مستسقياً للحي[3] :

أيا شجراتِ الحيِّ من شاطئِ الوادي سقاكِ الحَيَا سُقياكِ للدَّنِفِ[4] الصَّادي[5]

---

(١) ديوان الأعشى ، ص٢٣٦ .
(٢) الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، دكتور محمد الناصر العجيمي، ص٢٤١.
(٣) ديوان ابن الحدّاد ، ص٢٠٥ .
(٤) الدّنف : المريض ، انظر : اللّسان ، مادة(دنف) .
(٥) الصّادي : العطِش ، انظر : اللّسان ، مادة (صدي) .

وكذلك يدعو ابن زُمْرُك للحمى الذي به من يحبّ فيقول[1] :

يا ظبيةً سنحَت[2] بأكنافِ الحمى سُقِيَ الحِمى صوبَ[3] الغمامِ المسْجَمِ[4]

ويستسقي ابن الخطيب لزمنٍ قديم حنَّ إليه، وأيام وصلٍ ذهبت، فيقول[5]:

سقى الإلهُ زمان الوصلِ صوبَ حيا[6] جَونِ[7] الرَّبابةِ[8] لا نزْرٍ[9] ولا ثمدِ[10]

وجادَ ربعاً على أكنافِ كاظمةٍ[11] كُنَّا بِهِ من لذيذِ العيشِ في رَغَدِ

فدعا ابن الخطيب بنزول مطرٍ دائم ، غير منقطع ممَّا شابه به قول المثقب العبدي[12] :

سقى تلك من دارٍ ومن حلَّ ربعَهَا ذِهابُ الغوادي وبلُها[13] ومديمُها[14]

---

(١) ديوان ابن زُمْرك ، ص٧٥ .

(٢) سنحت : السنح الظباء الميامين ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنح).

(٣) الصوب : المنصبّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوب).

(٤) المسجم : المنصبّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجم).

(٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/٢٧٥ .

(٦) الحيا : المطر لإحيائه الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (حيا).

(٧) الجون : الأسود اليحمومي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جون).

(٨) الربابة : الرباب السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب قد يكون أبيض ، وقد يكون أسود ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربب) ، وقد ذكر ابن الخطيب هنا أنه أسود .

(٩) لا نزرٍ : أي غير قليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نزر).

(١٠) لا ثمد : أي غير منقطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثمد).

(١١) كاظمة : موضع قريب من البصرة ، وقيل بئر عرف الموضع بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (كظم).

(١٢) ديوان المثقب العبدي ، ص٧٥ .

(١٣) الوبل : المطر الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (وبل) .

(١٤) مديمها : المطر الدائم الهطول في سكونٍ بدون رعد وبرق ، انظر : اللِّسان ، مادة (ديم) .

وقد وصف ابن الخطيب السَّحابة بالجون وهو السواد[١] ، ممَّا أراد به أنَّها محمَّلةٌ بالمطر ، وفي مثل هذا الوصف للسحابة يقول ابن هُذيل[٢] :

وحنَّانـــةٍ في الجـــوِّ كـــدراءَ اقبلـــت   تبسَّمُ عن ومضٍ مـــن الـــبرقِ خـــاطفِ

فوصف إضافةً للَّون الكدرِ للسحابةِ الذي أراد به المطر المحمَّل ، وَصْفَ صوْتِ الرَّعد ، فقال : (حنانة) والحنين صوت الناقة تطرب في إثر ولدها[٣] ، وعندما أراد ابن خفاجة أن يصف ثقل السحابة بالمطر ، لم يذكر اللَّون ، كما ذكره ابن الخطيب وابن هذيل ، وإنَّما شبهها في ثقلها بالمقيَّدة التي تسير في الظلام ، ممَّا هو أدعى للتثاقل ، وأنها لذلك تدنو من الأرض ، فقال[٤] :

وغمامةٍ لم يستقلَّ[٥] بـــهـــا الـسُّـرى   فمشتْ علـــى الظلمـــاءِ مشـــيَ مقيَّـــدِ

حملت بـــهـــا ريـــحُ القبـــولِ ســـحابةً   ســـحَّابةُ الأذيـــالِ تُلمـــسُ باليـــدِ

وقوله ((تُلمس باليد)) نظر فيه إلى وصف أوس بن حجر المشهور للسحاب الذي يقول فيه[٦] :

دانٍ مسفٌّ[٧] فويـــقَ الأرض هيدبُـــه[٨]   يكـــادُ يدفعُـــه مـــن قـــامَ بـــالرَّاحِ

وابن خفاجة عندما أراد وصف السحابةِ ، السَّحابةِ الأذيالِ ، جعل الرِّيح التي تحملها قبولاً وهي (الصَّبا)[٩] .

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (جون) .

(٢) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٣٨ .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (حنن) .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٣ .

(٥) لم يستقل بها : لم يرفعها ويحملها ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلل) .

(٦) ديوان أوس بن حجر ، ص١٩٣ .

(٧) مسفّ : كثير ، انظر : اللِّسان ، مادة (سفف) .

(٨) الهيدب : السحاب الذي يتدلّى ويدنو مثل هدب القطيفة ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدب) .

(٩) انظر : اللِّسان ، مادة (قبل) .

ومن الصَّبا اتخذ العشاق رسولاً ، ومهيجاً للشوق ، ومذكّراً بالحبيب ، ((قال جالينوس : يتروّح العليلُ بنسيم أهله كما تتقوّت الحيّة ببل المطرِ إذا أصاب الأرض ...))[1] ولذا أكثر الشعراء الأندلسيُّون ، كأسلافهم البدو ، من وصف الصَّبا ، وربطو بينها ، والشوق والحنين ، يقول عليٌّ بن أبي الحسين[2]:

خليليَّ مالي كلَّما هبَّت الصَّبا ... أحنُّ إلى الأفقِ الذي تتيمَّمُ
أكلِّفُها حملَ السلامِ إليكمُ ... فإن خطرتْ يوماً عليكم فسلِّموا
كأنَّ الصَّبا عندي رسولٌ مبلِّغٌ ... أبوحُ بأسراري إليه فيكتمُ

وفسَّر أحمد بن فرج الجيّاني سريان الشوق في النفس لمسراها ، وذكر أنَّها مشتقةٌ من الصبابة ، فقال[3] :

هي الريحُ يسري الشوقُ فيٌ إذا سَرَت ... ويجري لها دمعي ببحرٍ إذا جرتْ
كأنَّ الصَّبا مشتقةٌ من صبابتي ... فأهتاجُ ماهاجَتْ وأهدَا إذا هَدَتْ

وقد كان العرب يعرفون أن من اشتقاقات الصَّبا : الصِّبا بالكسر أي صغر السنّ ، وصبَا إلى اللهو أي مال إليه ، والصبوة وهي الفتوّة واللهو ، ومنها التصابي ، والشوق ، والصَّبا وهي الريح التي ذُكر أنها تحنُّ إلى البيت[4] ، وهي كلُّها اشتقاقاتٍ لمعانٍ كثرت تداعياتها في الشعر عند ذكر الصَّبا ، وهي تندرج تحت مسمّى الحنين ، الذي هو لبُّ معظم الشعر ، ولذا أنشدَ الشعراء الصَّبا ، وأنشدُّوا لكلّ ما يستدعيه اسمها ، يقول ابن الزَّقّاق[5] :

أهوى الحمى من أجلهم ولربَّما ... أصبو لعلويِّ الصَّبا أتنسَّمُ

وربَّما خصَّ علويَّها لرقته وبرودته على نحو ما قال أعرابيٌّ ذكر علويّ الرياح[6] :

---

(١) ديوان المعاني ، العسكري ، ١٩٣/٢ .
(٢) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٢٩ .
(٣) الحدائق والجنان ، ابن فرج الجياني ، ص٣٢ .
(٤) انظر : اللّسان ، مادة (صبا) .
(٥) ديوان ابن الزَّقاق ، ص٢٥٠ .
(٦) ديوان المعاني ، العسكري ، ١٩٣/٢ .

إذا هبَّ علويُّ الرياحِ استمالني   كأنّي لعلويّ الرياحِ نسيبُ

ووصف الشعراء الأندلسيُّون من الرياحِ والنسائم إضافةً للصَّبا (النَّعامى) وغيرها ممَّا ورد في فصل النسيب ، كما وصفوا الرياح العاتية المدمِّرة ، ممَّا ورد في وصف الطلل والصحراء .

وفي مثل هذا الوصف المناقض لوداعةِ الصَّبا يقول وهيبُ بن البديهيّ ، يصف ريحاً ترمي الوجوه وكأنَّها تضربها بسهام ، حتّى أنها تكادُ تصل لعتوِّها وقوّتها إلى الأحشاء ، فيقول[1] :

وريحٌ جربياءٌ[2] صابحتنَا   لها في الوجهِ رشقٌ[3] كالنبالِ
تغوصُ على البراقعِ والحَشَايَا   كغوصِ الطيفِ في سترِ الحجالِ[4]

فقد شدَّ عالم الباديةِ الساحر قلوبَ الشعراءِ الأندلسيين وعيونهم فنظروا إليه بالمخيّلةِ العربيَّةِ الوفيَّة ، نظر المشوق إلى فاتنةٍ غابت عنه ، وظلَّ يذكر تفاصيل ملامحها ، وألوان ثيابها ورائحتها ، إنَّه نقشٌ في الذاكرة والقلب لا يُمحى ، فقد يغيِّبُ البعدُ والزَّمن من نحبُّ وما نحبُّ ، ولكن تظلُّ صلةُ الروح والانتماء للأرض القديمة ، انتماء العاشق البدوي لمعشوقته .

وظلَّ هذا الوصلُ مع الأرضِ البعيدةِ والزمن القديم قيداً عاطفيًا محببًا يشدُّ الشعر الأندلسيَّ إلى البداوة ، التي تداخلت في وصف الأندلسيين لكثيرٍ من الموصوفات ، وفي كثيرٍ من الموضوعات ، فقد نظروا للزهور والورود ولكن شدَّهم الشوق والحنين للشيح والعرار والبان والرند ، والخزامى ، والظيَّان ، وربطوا ما شاهدوه بالقلب بما أحسّوه من حبٍّ ووجدٍ وحنين ، وشكوى ـ مما

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٢٦ .

(٢) الجربياء : الريح التي تهب بين الجنوب والصَّبا ، وقيل هي الشمال ، وإنما جربياؤها بردها ، وقيل هي النكباء التي تجري بين الشمال والدبور ، وهي ريحٌ تقشع السحاب ، انظر : اللّسان ، مادة (جرب) .

(٣) رشق : رمى ، انظر : اللّسان ، مادة (رشق) .

(٤) الحجال : الستور ، انظر : اللّسان ، مادة (حجل) .

ذكرناه سابقاً في فصل النسيب ـ وهو كثيرٌ في الشعر الأندلسيّ ، الذي وجدنا فيه امتداداً شعريًّا لنباتات البادية ، في بيئةٍ كثر فيها المدُّ الأخضر الزاهي ، فقد شدَّ مرأى نخلةٍ عين الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل فحنَّ ـ وهو حديث غربةٍ ـ إلى وطنه حنين الإبل لعشارها ، فقال[1] :

تبدَّت لنا بين الرُّصافة[2] نخلةٌ ... تناءَتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخلِ

فقلتُ : شبيهي في التغرب والنَّوى ... وطولِ التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الإقصاءِ والمنتأى مثلي

سقتكِ غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحُّ ويستمري السِّماكينِ[3] بالوبلِ

وفي البيت الأخير دعاءٌ بدويّ بالسقيا ذكر فيه مريّ الضرع ، واستعاره لنجمين معروفين في السماءِ استدراراً للمطر .

وكما وجدنا أن تحت كوامن صورة البرقِ لواعجَ حنين ، كذلك الأمر في نباتات البادية فلذلك ذكر الشعراء العرار في سياق وصف الصَّبا ولياليه ، فقال ابن خفاجة[4] :

وقلتُ وقد شاقني ملتقى ... شميمَ العرار[5] وبردَ الصَّبا

---

(١) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ٢/٤٨ .

(٢) الرُّصافة : منها رصافة الشام ، بناها هشام بن عبد الملك ، وكان يسكنها في الصيف ، ورصافة قرطبة ، أنشأها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وهو أوّل من ملك الأندلس من الأموية بعد زوال ملكهم ، أنشأها وسمَّاها الرصافة تشبيهاً ، ونظر فيها إلى نخلة منفردة ، فقال الأبيات السابقة .

انظر : معجم البلدان ، ٢/٤٧، ٤٨ .

(٣) السماكين : نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل ، والآخر السماك الرامح ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمك) .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١١٦ .

(٥) العرار : بهار البرّ ، وهو نبت طيب الريح ، وقيل هو النرجس البريّ ، وفيه قال الصمّة القشيري :

تمتع من شميم عرار نجدٍ ... فما بعد العشيةِ من عرار

انظر : اللِّسان ، مادة (عرر) .

خليلـــيَّ مـــن حمـــيرٍ حـــدِّثا أخـــا شـــيبةٍ عـــن ليـــالي الصِّـــبا

وجاء وصفُ النباتِ الصحراويّ في سياقِ وصفِ الظبيةِ المشابهة للمحبوبة ، فقد اختزنت الذاكرة الشعريّة مشهد الظباء ترعى ، ووجدوا فيها جمالاً ، ألحقوا به نساءهم فمن قصيدةٍ لحازم القرطاجنّي يقول في أوّلها[1] :

يـــا ظبيـــةَ العَفَـــرِ الحـــالي مؤالفـــةً مـــن قلَّـــدَ الحَلْـــيَ آرامـــاً وغزلانـــاً

فقال يذكر العرار والفلاة[2] :

ظبيٌ غَدَا يرتعـي حـبَّ القلـوبِ ولا يرعـى عـراراً بمومـاةٍ[3] وظيَّانـا[4]

وقد وصف الشاعر الأندلسيّ نبات البادية وصفاً أندلسيّاً رقيقاً ، فابن هذيل يشبِّه الخزامى بطفلٍ صغير احتضنته ريحُ النعامى الحانية ، يقول[5] :

نام طفلُ النبـتِ في حجـرِ النُّعـامى[6] لاهتـزازِ الطَّـلِ في مهـدِ الخزامـى[7]

وسمَـا الـوسميُّ[8] أغصـانَ النَّقَـا فهـوت تلـثمُ أفـواهَ النَّـدامى

وقد وصفَ ابن هذيلٍ في أندلسيَّةٍ رقيقةٍ أمومة الريح ، وبنوَّة النَّبت ، ممَّا هو متّصل بصور النَّماء والخصوبة ، التي ذكرنا من أمثلتها في وصف المطر .

(١،٢) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص١١٧ .

(٣) المومـاة : المفازة الواسعة الملساء ، انظر : اللّسان ، مادة (موم) .

(٤) ظيّانا : نبت باليمن يُدبغ بورقه ، وقيل هو ياسمين البرّ ، انظر : اللّسان ، مادة (ظيا).

(٥) نفح الطيب ، المقّري ، ٤٩/٥ .

(٦) النّعامى : من أسماء ريح الجنوب لأنها أبلُّ الرياح وأرطبها ، انظر : اللّسان ، مادة (نعم) .

(٧) الخزامى : عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهر ، طيبة الريح ، ويقال إنه لم يوجد في الزهر زهرة أطيب نفحة من نفحة الخزامى ، انظر : اللّسان ، مادة (خزم) .

(٨) الوسميّ : مطر الربيع الأول ، لأنه يسم الأرض بالنبات تنسب إلى الوسم ، انظر : اللّسان ، مادة (وسم) .

أمَّا مشهد الحنوّ والأمومة والحدب والرعاية ، فهو من المشاهد التي كثر تداولها باختلاف الملامح والموضوعات في الشعر العربيّ ، ومن أوائل هذه الصُّور التي حوت الرعايةَ والأمومة الوصف بالمطفل[١] في المعلقة عند امرئ القيس ،وكذلك وصفه ظبيةً تشبه صاحبته في قوله[٢] :

نظـــرت إليـــكَ بعـــين جازئـــةٍ[٣] حـــوراءَ حانيـــةٍ علـــى طفـــلِ

وقد يأخذ وصفُ النباتِ في الشعر الأندلسيّ منحاً عذريّاً بدويّاً ، كما فعل ابن هذيل أيضاً ،الذي أعطى هذه النباتاتِ صفة العشّاق ، ووجد في صورتها صورة حبٍّ عذريّ ،أنحل أصحابه الهوى والوجد ، فقال[٤] :

هبَّـــت لنـــا ريـــحُ الصَّـــبا فتعانقـــت فذكرتُ جيـــدَكِ في العنـــاقِ وجيـــدي
وإذا تـــألفَ في أعاليهـــا النَّـــدى مالـــتْ بأعنـــاقٍ ولطـــفِ قـــدودِ
وإذا التَقَتْ بـــالريحِ لم تبْصـــرْ بـــهـــا إلا خـــدوداً تلتقـــي بـــخـــدودِ
فكـــأنَّ عـــذرةَ بينـــها تحكـــي لنـــا صـــفةَ الخضـــوعِ وحالـــة المعمـــود[٥]

وقد ذكر ابن حمديس نباتاتِ البادية في سياق الحنين للوطن ، فوصفها تبعاً لمدلولها النفسيّ عنده في قصيدةٍ شكى فيها وطأَة الزمن ومعاناة مرارة الغربة ، قال فيها[٦] :

ودارٍ غـــدونا عـــن حِمَاهـــا ولم نَـــرُح ونحـــنُ إليهـــا بـــالعزائمِ قُفَّـــالُ
بـــها كنتُ طفلاً في ترعـــرعِ شـــرَّتي[٧] الاعـــبُ أيّـــامَ الصِّـــبا وهـــي أطفـــالُ

(١،٢) في قوله :

تصـــد وتبـــدي عـــن أســـيلٍ وتتقـــي بناظرةٍ مـــن وحـــش وجـــرة مطفـــل

ديوان امرئ القيس ، ص٤٢ .

(٣) الجازئة : الظبية التي استغنت بالرطب عن الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزأ).

(٤) التشبيهات ، ابن الكتّاني ، ص٤٤ .

(٥) المعمود : المريض الذي أضناه المرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمد).

(٦) ديوان ابن حمديس ، ص٣٥٧ .

(٧) شرّتي : الشرة التمادي ، والقوّة ، والهمّة والجدّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شري).

ثم وصف الطلح والضالّ ، ممّا هو معروف في البوادي بكثرة الشوك ، فكنّى بهذا الشجر اليابس الخالي من الزهر عن شيخوخته وضيق العيش ونكده الذي أصبح فيه ، وقرن ذلك ، بما دلّ عليه قطع الفيافي والتعرض للوحوش وقابل بين هذه الصورة للشقاء في الغربة ، بصورة الهوى والأنس في الوطن الذي كنّى عن عيشته الغضّة وشبابه فيه بالورد والسوسن ، فقال[1] :

أبعدَ أنيساتِ الـهـوى أقطـعُ الفـلا ... ويسنحُ لي من وحشِها الجأبُ[2] والرالُ[3]

ومـن بعـد وردٍ في مقيلـي وسوسـنٍ ... أقيل ومشمومي بها الطَلحُ[4] والضالُ[5]

وهكذا . . . تداخلت البداوة في الشعر الأندلسيّ كثيراً ، من خلال وصف نباتاتٍ صحراويَّة ، لأنها برموزها البدويَّة ذات دلالاتٍ كبيرةٍ على الحنين تنوءُ بحملها أزهار الحاضرةِ وبساتينها اليانعة ، فظلّ بذلك النزوعُ البدويُّ قويّاً في الشعر الأندلسي .

* * *

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٥٨ .

(٢) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش ، انظر : اللّسان ، مادة (جأب).

(٣) الرال : ولد النعام ، انظر : اللّسان ، مادة (رأل).

(٤) الطلح : شجرة حجازيّة ، منابتها بطون الأودية ، وهي أعظم العضاةِ شوكاً وأصلبها عوداً ، وأجودها صنعاً ، وشوكها كثير ، انظر : اللّسان ، مادة (طلح).

(٥) الضال : السدر البريّ ، وهو من شجر الشوك ، انظر : اللّسان ، مادة (ضيل).